حول التعليم فى البلاد العربية

بقلم محمد أمين الحافظ

من الصعب فى معرض البحث فى التعليم في البلاد العربية، أن نجمل البحث عن جميع تلك البلاد ، وأن نعتبر حالتها الثقافية متشابهة يلزم لمختلف مشاكلها حلول واحدة ، ولمختلف مشاريعها صور من التنفيذ واحدة .

وإن احتلال الأجانب للبلاد وسعيهم الحثيث إلى بث التفرقة ، واختلاف مقاصدهم وأساليبهم وطرقهم التعليمية والاستعمارية ، كل هذه الأسباب وغيرها جعلتنا نجد نظما للتعليم متباينة فى البلاد العربية ، ولكن الشعوب العربية أخذت تفيق وتتخلص بخطى متفاوتة من ربقة الاستعمار ، وأدرك قومنا أن من أهم أركان تدعيم النهضة العربية النهوض بالثقافة ، وأن من أبرز وسائل تحقيق الوحدة العربية إحكام ربط البلاد بالوشائج الثقافية ، وبدأوا يتناقشون فى أنجع الوسائل لتحقيق تلك الغايات ، وظهرت في الأفق فكرتان فكرة التعاون الثقافى بين البلاد العربية ، وفكرة التوحيد فى المناهج التعليمية .

وأود بادىء ذى بدء أن أشرح ماتؤدى إليه هاتان الفكرتان . ويهمنى أولا أن نلاحظ أننى أتحدث عن الشعوب العربية ، على أنها تؤلف أمة واحدة كالأمة الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية . وتمهيداً للبحث أذكر أن الدول الغربية انقسمت فى رأيها عن أى الطريقتين تتبع : التعاون أم التوحيد ؟ أما الأمم اللاتينية والجرمانية فقد أخذت بمبدأ التوحيد التام، بينما أخذت الولايات المتحدة بمبدأ التعاون الحر، وتركت لكل ولاية من ولاياتها الثمانى والأربعين

حرية تنظيم شئونها الثقافية إلا فى بعض القضايا الرئيسية النادرة. والمتعلقة بالأهداف القومية. ولكن بريطانيا التى أدركت مساوىء التطرف، رأت أن تنهج نهجاً وسطاً، فتوحد شئون الثقافة في الخطوط الرئيسية والاتجاهات العامة ثم تدع كل هيئة تعليمية تتصرف بما تراه أصلح. وبذلك يتسع مجال الابتكار والتفكير الشخصى، وقد أصدرت بريطانيا إبان الحرب «كتاباً أبيض» تنظم فيه التربية بعد الحرب.

أما أنصار التوحيد المطلق فانهم يعتقدون أنه يقضى على الفوضى التى تنشأ عن الحرية الواسعة، ويصبغ أبناء الوطن بصبغة وطنية واحدة. وبطابع ثقافى واحد. وهذا المبدأ يعتمد كثيراً على المركزية التامة. ويرى أنصار التعاون الحر أن التوحيد المطلق يقتل موهبة الابتكار. ويجعل البلاد غارقة فى طريقة آلية ميكانيكية لامجال فيها للتطور والابتداع. وقد زار صحفى أمريكى مرة أحد وزراء المعارف فى فرنسا وسأله عن توحيد التعليم فى فرنسا. فأخرج الوزير ساعته من جيبه وقال: «اليوم هو السابع عشر من فبراير. والساعة الآن التاسعة. إن كل تلميذ فى السنة الثانية الإبتدائية فى فرنسا من أقصاها إلى أقصاها يتعلم جدول الضرب ب ٧ فى الصفحة ٣٥ من الكتاب !؟.»

نعود إلى البلاد العربية فنرى الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه: «تقارير عن حالة المعارف فى سوريا واقتراحات لإصلاحها» يقوم ببحث واسع في موضوع فكرتى التعاون والتوحيد، يخرج منه بتأييد فكرة تكوين ثقافة عربية موحدة أو «وحدة ثقافية عربية» وفى ذلك يقول:

(كثيراً مالاحظت أن البعض يفهمون «الثقافة الموحدة» أو «الوحدة الثقافية» على غير وجهها الصحيح، والبعض يستغلون هذا الفهم السيء لمعارضة الفكرة معارضة صريحة. يقول هؤلاء: «إن الأقطار العربية يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً: من حيث الطبيعة والمناخ والأخلاق

والعادات من جهة . ومن حيث المستوى العلمى والإجتماعى من جهة أخرى . فلا يمكن توحيد الثقافة بينها .. زد على ذلك أن محاولة توحيد الثقافة بين هذه الأقطار المختلفة تعنى القضاء على خصوصيات كل واحد منها وتؤدى إلى ارتداد ثقافة الأقطار الراقية إلى درك ثقافة الأقطار المتأخرة ، وفى ذلك ما فيه من الأضرار الفادحة التى يجب تفاديها .

إنى أشبه أقوال هؤلاء بمدعيات من يقول : إن العظام تختلف عن الأعصاب كثيراً واللحم لا يشبه الدم أبداً ، فهل يمكن تكوين وحدة من هذه الأشياء المتخالفة بعضها عن بعض كل هذا الاختلاف ؟ وإذا طلبنا توحيد هذه الأشياء المتخالفة ، ألا نكون قد طلبنا إزالة الفوارق القائمة بينها ، وحاولنا إرجاع الدماغ إلى دركة الأمعاء والدم إلى دركة الشحم ؟ » . من البديهى أن أمثال هذه المدعيات لايمكن أن تقابل بغير السخرية والاستهزاء ، لأن بدن الإنسان دليل على سخافة هـذه الملاحظات .. والوحدة المثالية التى تتجلى فى هذا البدن تدل دلالة قاطعة على إمكان تكوين وحدة من أشياء متنوعة . إن الوحدة الثقافية التى نتوق إلى تكوينها فى الأقطار العربية لاتختلف كثيراً عن الوحدة الجثمانية التى نشاهدها فعلا بين أعضاء البدن ، فتنوع الأعضاء والأنسجة من العوامل التى تزيد الروابط بينها وتقوى الوحدة العضوية التى تتألف منها . إننا عندما نفكر فى الوحدة الثقافية يجب أن نفكر فى وحدة مثل الوحدة التى تشاهد فى الأبدان والمجتمعات ، والوحدة التى تتجلى فى الأغاني والألحان . إنى أعتقد أن الذين يعترضون على فكرة توحيد الثقافة — مستندين إلى اختلاف الأقطار العربية — بحجة وجوب المحافظة على خصوصيات هذه الأقطار . لا يكونون أكثر سلامة فى تفكيرهم ، وأشد إصابة فى مدعاهم ، من مثل هذا الشخص المغروض الذى لايرى إمكانا لوحيد الآلات الموسيقية ، بحجة اختلاف أشكالها وأصواتها اختلافا كبيراً . إن لتوحدة

الثقافية التى نطلبها لاتختلف عن وحدة الألحان التى يطالب بها هواة الطرب وعشاق الموسيقى . إن وحدة الثقافة لاتعنى عينية التفكير فى كل شىء . بل إنما تعنى الوحدة فى لون التفكير العام، والتناسق فى الاتجاه السائد فيه . إن الثقافة الموحدة التى نصبوا إليها لا تعنى إزالة الفوارق الفكرية من بين الناس . إننا لانحاول إزالة أمثال هذه الفوارق حتى بين الأفراد . فضلا عن الجماعات . بل جل مانصبو اليه فى هذا الصدد هو أن تتناسق هذه الأفكار والعواطف المختلفة والمتنوعة ، تناسقاً يولد وحدة معنوية سامية) .

يبدو للقارىء من هذا كله الفرق بين التوحيد فى طرق التعليم فى البلاد العربية، والتعاون فى تحقيق أهداف التعليم .

ولقد اجتمع فى بيت مرى فى لبنان إبان شهر سبتمبر ١٩٤٧ المؤتمر الثقافى الأول التابع لجامعة الدول العربية ، وتوصل إلى قرارات من شأنها أن تضع التعليم فى البلاد العربية ـ لافى موقف التوحيد المطلق فى المناهج ـ لأن ذلك يخالف المادة الثانية من بروتوكول الأسكندرية الذى انبثقت منه الجامعة العربية ولا مقتصراً على مبدأ التعاون البسيط فقط ، بل تعدت بعض الأحيان حد العبارات الغامضة التى تقتصر على التمنى والتوصية. ولعل أهم ماجاء فى المقررات . والذى يوضح لنا مدى نية الحكومات العربية فى التعاون الثقافى المادة الخامسة من مقرراته التى تقول : « يرى المؤتمر أن يترك تفاصيل المناهج الدراسية وطرق التدريس إلى المختصين فى كل دولة، مكتفياً بوضع الأسس العامة التى يراها ضرورية لضمان القدر المشترك الذى يحقق ماتهدف إليه التربية الوطنية فى البلدان العربية » .

ومن أهم المقررات كذلك ماقرر فيما يتعلق بتدريس التاريخ، فقد جاء ما يأتى : « يرى المؤتمر :

أولا : أن يكون محور دراسة التاريخ فى المرحلة الإبتدائية تاريخ القطر

الخاص الذى يعيش فيه التلميذ، مع العناية بدراسة الصلات بين هذا القطر وبين البلاد العربية قبل الإسلام وبعده .

ثانياً : أن يشمل القدر المشترك من التاريخ العربى بالمدارس الثانوية فى جميع البلاد العربية، تاريخ العرب قبل الإسلام، ومنذ ظهور الاسلام إلى الفتح العثمانى ، ثم النهضة العربية الحديثة » .

أما أهم المقررات الخاصة بالجغرافيا فهى ما يأتى : « توزع الدراسات الجغرافية فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى على الصورة الآتية: فى مرحلة التعليم الابتدائى تتدرج دراسة البيئة المحلية الخاصة حتى تمتد إلى دراسة بيئة الأقطار العربية عامة وذلك على شكل سياحات إلى هذه البلاد ، تستخدم فيها الصور المشوقة، ويستعان فيها بالأفلام ما أمكن . وعند دراسة حياة السكان يعنى خاصة باظهار الروابط بين البلاد العربية، مع استخدام جميع وسائل الإيضاح . أما فى مرحلة التعليم الثانوى فتراعى الأمور الآتية : ا ـــ تدريس جغرافية الأقطار العربية فى موضعها من الأقاليم الطبيعية دراسة عامة ، ليتسنى للتلاميذ أن يدركوا العلاقات الجغرافية التى تربط بينها وبين الأقطار التى تقع فى أقاليم متشابهة. ب ـ يدرس العالم العربى كله بشيء كثير من التفصيل فى إحدى السنوات الأخيرة من التعليم الثانوى . وأن يتناول جميع نواحى الجغرافيا الطبيعية والبشرية لكل قطر من الأقطار العربية . وكذلك يجب إبراز الاتصال الجغرافى التام بين البلاد العربية فى قارتى آسيا وأفريقيا ، والعناية باظهار أن هذه البلدان كانت مهداً لأقدم حضارات العالم، وأنها قدمت للحضارة العالمية أجل الخدمات، ثم إبراز الاشتراك التاريخى بين هذه البلدان: ففى العصور القديمة كانت تربطها أوثق الصلات وكانت بعد ذلك خلال حقبة طويلة من الزمن وحدة سياسية تضمها إمبراطورية عربية عظيمة ، كما ظلت فى العصور المتأخرة مرتبطة بروابط قوية .

هذا الذى توصل إليه المؤتمر الثقافى الأول، لم يخرج عن كونه خطوطا عريضة عفت عن التعمق . وهناك أنواع أخرى من التعاون الثقافى بين البلاد

العربية، سر المؤتمر على بعضها سريعا وأغفل البعض الآخر . ولعل الاتصال الثقافي بين بعض الدول العربية منفردة قد تقدم أكثر من تقدم مؤتمر الجامعة نفسها . وإليك مثل المعاهدة المصرية ـ العراقية التي عقدت قبل مؤتمر بيت مرى بأعوام . وقد نصت المدة الأولى فيها على تعاون وثيق في جميع الشؤون الثقافية . ومن ذلك تبادل المطبوعات، ووسائل التعليم، وحماية حقوق التأليف والترجمة والنشر . وانتداب الأساتذة المصريين للتدريس بالعراق . وتبادل الأساتذة الزائرين، وتقريب مناهج الدراسة، وتعادل مراحل التعليم وشهاداته . والاعتراف بتبادل شهادتيهما الابتدائية والثانوية . وتبادل الطلبة، وتشجيع الرحلات ونشر المخطوطات، وترجمة عيون الكتب وتوحيد المصطلحات العلمية عن طريق المجامع، وعقد المؤتمرات الثقافية، وإنشاء مكتب ثقافي دائم .

وثمة مثل آخر: فهناك نص قانوني متبادل بين لبنان وسوريا، يجعل شهادتيهما الثانويتين الرسميتين (البكالوريا) متعادلتين . وقد اعترفت الحكومة المصرية بالشهادة الثانوية التي تمنحها كل من كلية المقاصد الاسلامية في بيروت و « كلية التربية والتعليم » في طرابلس لبنان على أنها معادلة للبكالوريا المصرية . ولا ريب أن هاتين الكليتين تطبقان منهاج البكالوريا اللبنانية بحذافيره، فشهادتها معادلة إذن لشهادة لبنان الرسمية، وشهادة لبنان معادلة حتما لشهادة مصر . ثم إن المادة السابعة من المعاهدة الثقافية المصرية العراقية قد اعترفت بتعادل الشهادتين الابتدائية والثانوية في القطرين .

نلوي الآن عنان بحثنا فنقدم لمحة عامة عن حالة التعليم الحالية في كل من الأقطار العربية على حدة . أما لبنان فقد تقدم كثيرا في مضمار الرقي الثقافي ، فبلغت نسبة المتعلمين ٨٦ ٪ من مجموع السكان ، وهناك مناطق عديدة قد احتفلت بدفن آخر أمي فيها . وفي بيروت جامعتان : الأولى هي

جامعة بيروت الأمريكية، وقد أسسها المستر بلس بعد أن حولها من كلية اسمها «الكلية الانجيلية السورية» إلى جامعة. وفى سنة ١٩٣٤ كانوا يعدونها فى المقام الحادى عشر بين جامعات العالم . ويؤمها الطلبة من شتى الجنسيات ، آتين من مختلف الأقطار، وأكثرهم من الشرقيين ، ووصل عددهم سنة ١٩٤٣ إلى حوالى ألف طالب (أما المعاهد الثانوية والابتدائية التابعة لها فلها حساب خاص) .

والجامعة الفرنسية Université Saint-Joseph des Pères Jesuites يؤمها أغلب الطلاب اللبنانيين من حملة شهادات الحكومة الرسمية (البكالوريا) وفيها كلية حقوق ، وكلية آداب ناشئة ، وكلية طب ، وكلية هندسة (معمارى فقط) وكلية علوم ناشئة . وقد تأسست عام ١٨٧٥ وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٣ ٧٠٠ طالب .

وفى لبنان الذى يسكنه مليون شخص تقريبا ١٦٠٠ مدرسة تضم ١٣٨٣١٨ تلميذاً. أما المدارس فهى من شتى الأنواع، فهناك ٢٦٧ مدرسة أميرية، و١٤٩ إسلامية، و ٨٩١ مسيحية، و ٢٦ معهد خاص و ٢٧٣ مدرسة افرنسية ، و٣٦ أمريكية ، و١٤ مدرسة انكليزية ، ومدرسة دانماركية ، وأخرى سويسرية ، وأخرى يونانية .

أما سوريا فبها نهضة ثقافية ناشئة ، ووزارة المعارف السورية تهتم كثيرا بإرسال البعثات إلى الخارج، وتقديم المنح إلى السوريين الذين يدرسون فى الخارج على نفقتهم ، وهى كذلك تقوم بحملة واسعة فى سبيل مكافحة الأمية، فشرعت فى إنشاء مدارس كثيرة ، خصوصاً فى المناطق التى رتعت فيها الجهالة أكثر من غيرها أيام الانتداب، كمناطق جبل الدروز العلويين والجزيرة وتأسست الجامعة السورية بدمشق عام ١٩٢٣ وقد بلغ عدد طلابها ١٠٤٠ سنة ١٩٤٦ . وفيها كلية للحقوق، وأخرى للطب والصيدلة، وكلية ناشئة للآداب وقد أنشئت لثلاث سنوات خلت كلية للهندسة تابعة للجامعة السورية فى مدينة

حلب . وفى دمشق أيضا كلية دار المعلمين العليا . وفيها كذلك مجمع لغوى تأسس عام ١٩١٣ وفيه مكتبة عامرة . وفى قرية السلمية الواقعة شمالى دمشق مدرسة قديمة للزراعة .

وإذا تحولنا جنوباً إلى فلسطين ألفينا أن وجود العرب واليهود قد حير دائرة المعارف الفلسطينية فى الطريقة التى يجب أن تتبعها فى التعليم . وأخيراً أصدرت عام ١٩٢٠ نظاماً ثنائيا له شعبتان : الأولى عربية ، والأخرى يهودية ، وكل المدارس فى فلسطين (ماخلا بعض مدارس خاصة) تقع إما ضمن النظام الأول أو الثانى . وفى فلسطين مدارس عامة ومدارس خاصة . وفى عام ١٩٤٤ كان هناك ٤٢٢ مدرسة أميرية ، تحوى ١٦٨٧ أستاذا و ٦٣١٤١ تلميذا . وبلغ عدد المدارس الخاصة ٢٧٠ مدرسة ، تضم ٤٢٢٢٧ تلميذاً . وفى سنة ١٩٢١ افتتحت فى القدس صفوف للحقوق ، مدتها خمس سنوات ، وفى سنة ١٩٤٤ كان عدد طلابها ٢١٥ وقد أجيز فى تلك السنة ١٥ طالبا ، ونظراً لمركز فلسطين الدينى اتجهت إليها الإرساليات التبشيرية المسيحية ، فأنشأت مؤسسات كثيرة منها المدارس والبنسيونات الثقافية Hospices . أما المدارس فعددها ١٧٧ مدرسة مسيحية ، منها ١٠٩ كاثوليكية ، و ٣٠ بروتستانتية و ٢٩ أورثوذوكسية ، تدرس شتى اللغات ، وتعبر عن مختلف الثقافات والمدنيات فى العالم . وعدد تلاميذها ٢٧٢٣٢ تلميذا . وهناك فى فلسطين مدرستان زراعيتان ، الأولى فى طولكرم للعرب وفيها ٤٥ طالبا والثانية لليهود فى جبل تابور ، وتحوى ٤٩ طالبا . وقد بلغت ميزانية الحكومة للتعليم (١٩٤٤ — ٤٥) مبلغ ٥٤٧٠١٠ جنيه للمدارس العربية ، و ١٤٦٢٢٥ جنيه للمدارس اليهودية .

وتضم شرق الأردن ٦٩ مدرسة أميرية ، و ٨٦ مدرسة خاصة . وعدد الأساتذة ٣٦١ ، والتلاميذ ١٥٢٠١ . أما ميزانية التعليم لسنة ١٩٤٥ — ٤٦ فقد

بلغت ٣٥ ألف جنيه. غير أن هذه المعاهد العلمية لا تزال فى دور أولى . وإذا كنا لم نعرض فى هذا البحث لحالة التعليم بمصر، فانه لا يفوتنا أن ننوه بالدور الكبير الذى تلعبه مصر، فهى تخرج سنوياً العدد الكبير من المؤلفات المتنوعة التى تنتشر فى مختلف البلاد العربية ، كما أن معاهدها العلمية مركز لعدد وافر من البعثات التى تفد إليها من الأقطار الشرقية ، وهذا فضلا عن المستوى الذى بلغته فى الطباعة والنشر والإذاعة .

obeikandl.com